خواطر في التاريخ والعمران

تتمة مقال الاستاذ هولدين

تمد الآن الى الحقائق التاريخية المثبتة . فالحضارة لم ترتق ارتقاء ظاهراً في الفترة التي انقضت بين سنة ٣٠٠٠ ق. م. و١٤٠٠ ب. م. ولكنها انتشرت من مواطنها الاصلية في اودية النيل والفرات والسند حتى شغلت بقاعاً واسعة من سطح الكرة الارضية. وكانت هذه البقاع تتكمش في بعض الاحيان كما وقع لما اجتاحت جماهير الشعوب الشمالية القسم الشرقي من الامبراطورية . ولما اكتسح الاتراك بلاد العراق قدموا فيها حضارة كان قد انقضى عليها اربعة آلاف سنة. وكان يحدث هذا الانكماش بفعل طبيعي كجفاف يصيب الارض فيقضي على معاهد العمران فيها . ومن الراجح ان انتقال مواطن الحضارة من البلاد الاستوائية الحارة الرطبة الى البلدان المعتدلة يعود جانب كبير منهُ الى جرثومة الملاريا وبكروب الانيميا الخبيثة (الانكلستوما) فان الحشرات الناقلة لجراثيم الملاريا ودودة الانكلستوما لا تعيش الاّ في البلدان الحارة الرطبة ولدينا ادلة على ان هذه العوامل المرضية ما زالت منتشرة في الارض من اربعة آلاف سنة الى الآن

والمرجح انهُ لم يستنبط في هذه الفترة (٣٠٠٠ ق. م. — ١٤٠٠ ب. م.) سوى اربعة مستنبطات خطيرة هي التوسع في استعمال الحديد . والطرق المعبَّدة . والنصوبت . والتعصب الديني . ولعلّ الحقيقة كانت تقضي باضافة النقود وبناء المجاري لجرّ المياه الى المدن من اماكن بعيدة عنها . اما البارود فكان معروفاً في الصين قبل سنة ١٤٠٠ ق. م. بزمن طويل. ولكنه لم يبدأ يفعل فعلهُ في اوربا في رتج المعامع الحربية لمستعمليه الاّ في القرن السابع عشر للميلاد. وكان من اثر مرّ قبل ذلك انهُ مهد السبيل لاضعاف الفدية باضعاف معاقل الامراء من الوجهة الدفاعية. وارتقت المعرفة ارتقاء بطيئاً حتى انرى الآن اننا اسرفنا في تقدير ما لابداع اليونان في العلوم الرياضية . فالرياضيات والفلك عند البابليين بلغت درجة عالية من الرقي . ان كدنوّ — عالمهم الفلكي الكبير الذي عاش نحو سنة ٤٠٠ ق. م — كان ادق جدًّا في الارقام والمعادلات التي استعملها للتنبيء بالكسوفات من كلّ العلماء الفلكيين الذين جاءوا بعدهُ الى منتصف القرن الماضي . ولكن علومهُ كانت قد لبثت في هذه الفترة الطويلة ولم تترجم حساباتهُ الاّ حديثاً مما جعل قيمتها العملية ضئيلة . اما في اشور فكان الرجل المتوسط يعرف جدول الضرب . وقد اشار الى ذلك الملك اشور بانيبال

في سيرته فقال « واعدت عمليات الضرب والنسبة المعقدة التي لا تبدو جلية لاول وهلة» وهذا المستوى لم تبلغهُ انكلترا قبل القرن السابع عشر الميلادي

كانت شريعة الملك دُنجي Dungi الذي حكم اور حوالي سنة ٢٣٤٠ ق.م . لا تقلُّ عن شريعة الملك جورج الرابع في اوائل القرن الثامن عشر . فان رعايا الملك دُنجي كان يحقُّ لهم ان يكون لهم عبيد ولكن هؤلاء العبيد ان يملكوا عقاراً . وكانت النساء تملك حق الملك . واذا اتخذ زوج لنفسه خليلة فكان يحق للحليلة ان ترغم الخليلة على غسل ارجلها وان تحملها على كرسيِّها الى المعبد . ومع هذا كان للخليلة حقوق على الزوج . ولما كانت الشريعة تصف لنا المستوى الادبي الذي بلغهُ شارعوها فيحق لنا ان نحسب ان مستوى الآداب لم يرتقِ كثيراً من ذلك العصر الى عصرنا هذا

كان الحديد في شكلٍ ما معروفاً من اقدم العصور ولكن الناس لم يستخرجوه بكثرة ولا استعملوه بعناية الاَّ في الالف الثانية ق.م . ففي حصار طروادة حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م كان الحديد لا يزال بدعة غالية . والتوسع في استعماله رفع مستوى الحضارة المادي ولكنهُ جعل الحرب كذلك اكثر هولاً واشدَّ فتكاً . ولما شرع في بناء الطرق المعبَّدة صار في الامكان توسيع الدولة فلزم استنباط التصويت لتمثيل السكان البعيدين عن العاصمة فنبت على التصويت انواع الحكومات الجمهورية المختلفة . أما التعصب الديني كان من اقوى العوامل في نشر الحضارة وتعميمها . فالرومان الذين كانوا على جانب من التساهل الديني لم يستطيعوا ان يتغلبوا على الجرمان ولا هم حاولوا ان يحملوهم على استبدال الههم «ثور» بالاله جوبيتر . اما سانت بونيفاس وغيرهُ من المرسلين فقاموا الجرمان باستبدال الاله ثور بالمسيح ففعلوا ذلك وتخلقوا باخلاق الرومان وعاداتهم التي كانت ترافق المسيحية حيثما سارت فتوغلوا مع دعاة الانجيل في هذا العصر . ولكن الى جانب هذه الحسنة التي نشأت عن التعصب الديني الدافع الى نشر الدين والثقافة يبدو اثر هذا التعصب في خفض مستوى الحضارة في بلدان الامبراطورية الرومانية

فالحضارة اذاً اتسع انتشارها كثيراً قبل سنة ١٤٠٠ ب.م ولكن مستواها لم يرتفع . ولا نقع على اثر من آثار ارتقائها الاَّ اذا حصرنا نظرنا في غرب اوربا حيث وصلت الحضارة متأخرة . فلم يبزغ فجر القرن الخامس عشر حتى ظهرت حركة جديدة خطيرة . ذلك أن جمهور المتعلمين كانوا يحتقرون العمل اليدوي قبل ذلك . وهذا كان طبيعيًّا لان السيد كانوا ينجزونهُ لهم . على ان الحال تبدلت بغير الحال في اواخر القرون الوسطى لاسباب ثلاثة : اولاً ان الطبقة الحربية الحاكمة كانت امية وكان اكثر الملوك لا يدرون كيف يوقعون اسماءهم على رغم ان العلم كان منتشراً انتشاراً لا بأس به بين الطبقات الوسطى — ثانياً

كان عدد كبير من طبقات الرهبان يجيدون الصناعة علاوة على علمهم النظري — ثالثاً كانت حكومات المدن في ايدي جماعات الصناع (guild) والتجار وفي هذه الجماعات كان من يحذق الصناعة يرتقي حتى يبلغ اعلى مقامات الثروة والسلطان

فنشأ من ذلك امكان التوسع في البحث التجريبي بين طبقات المتعلمين. كان علماء العصور الماضية قد عنوا بدرس الطبيعة بالمرآة لا بالامتحان . فافلاطون كان يعتقد ان مستقبل البشرية في ايدي الملك — الفيلسوف . لقد اخطأ افلاطون . لان مستقبل الانسانية في ايدي الفيلسوف الذي يحذق الصناعة . فعلم الطبيعيات الحديثة نشأ في لندن حيث وضع سيمون ستفينوس « علم الستاتيك » سنة ١٥٨٦ بدرسه لمبادىء الحل والفتحة Sluice ان عمله في ابتداع طريقة للدفاع عن هولندا بطريقة الفتحات المائية له من الاثر في العمران كاثر نبوليون او وشنطن على الاقل . فان هذه الطريقة مكنت الهولنديين من الفوز في نزاعهم مع الاسبانيين الذي دام نحو ثمانين سنة . وبفوز الهولنديين سلم الاصلاح الديني من الانخذال . اما الصناعة الحديثة فبدأت باستنباط الطباعة . وخطورة هذا الاستنباط لا تقوم على ترخيصه الكتب بل على انه كان اول مثل لتطبيق الانتاج الميكانيكي الواسع النطاق على صنع بضاعة كانت كل وحدة منها تصنع على حدة من قبل

وضع غليليو المبادىء التي يهتدي بها الباحثون الطبيعيون في هذا العصر . فلو ان هو وبضعة رجال آخرين على شاكلته في حداثتهم من الحكام ما حال دون خنق الاسلوب العلمي لكانت حضارتنا لا تختلف كثيراً عن حضارة القرون الوسطى

على ان ارتقاء العلم كان بطيئاً ، مات غليليو سنة ١٦٤٢ فانقضت مائة سنة وستون سنة قبلما جرّت السفينة البخارية الصغيرة التي صنعها ستفنن مركين في قناة الفورث والكلايد باسكتلندا مسافة تسعة اميال ونصف ميل . واستنبط ليوفنهوك المكرسكوب الفعّال الاول سنة ١٦٦٠ فانقضى قرنان عليه قبلما استعمله باستور للكشف عن اسباب الامراض المعدية. فالحضارة لم تشرع تتغير الا في القرن الاخير بعد انقضاء ستة آلاف سنة عليها . ان حالات المعيشة في الاقوام المتمدنة الآن تختلف عن حالات المعيشة في الاقوام المتمدنة سنة ١٨٣٠ اكثر من اختلاف هذه عن حالات المعيشة في عصر نوح والطوفان . وهذا الانقلاب بل هذه الثورة العالمية الحقيقية، لا تزال في مستهلها . لقد قطعنا شوطاً بعيداً في تنظيم طرق الانتاج والمواصلات وترقيها . فقد قضينا تقريباً على كل الامراض التي تنقل جراثيمها بالماء والحشرات. ويكاد يكون هذا كل ما عملناه في تطبيق العلم على شؤون الانسان

فالعلم لم يطبق حتى الآن الا في ميداني الانتاج الصناعي والصحة . اما فيما عدا ذلك

فليس للاسلوب العلمي اثر ما في شؤون الحياة . فلدينا انظمة تهذيبية متعددة يقال انها مبنية على معرفة علمية بنفسية الاطفال . ولكنها في الغالب تنطبق على طوائف قليلة من الاطفال الاذكياء الذي نشأوا في أسر ذكية متطلعة . فاذا اتفق ان اصاب هؤلاء الاطفال قسطاً كبيراً من النجاح في ميدان العمل فنجاحهم غير مستغرب بل هو منتظر ولا يدلّ على شيء. فلكي تثبت تفوق نظام تعليمي معين على آخر يجب متابعة الوف من الاطفال المتوسطين الذين تعلموا على الطريقة الواحدة والوف تعلموا على الطريقة الاخرى لمعرفة اية طائفة تنجب اكبر عدد من الرجال الممتازين. وهذا لم يتم بعد . فمن الدعوى الفارغة التكلّم عن الاساليب العلمية في التعليم . ان الاسلوب العلمي يجمع بين المشاهدة والامتحان . فالامتحان من غير المشاهدة قد يكون وسيلة فتانة لقضاء الوقت ولكنه ليس علماً

على ان تطبيق العلم على الصناعة والطب قد قلب المسائل السياسية رأساً على عقب. كانت كل البلاد المتمدنة ، قبل بضعة عقود ، مؤلفة من عدد ضئيل من الافراد المثقفين في طائفة كبيرة من الافراد الجهّال . وكان هؤلاء يتنعمون الى حدّ ما بفوائد الحضارة التي بناها المثقفون . فالقسوة في توزيع الثروة بين كل هؤلاء من شأنها ان تهبط بالمستوى الثقافي العام . فكانت الاشتراكية والحضارة حينئذٍ متنافيتين . اما اليوم فالدخل العام في كل امة يكفي لجعل التعليم عامّاً وبذلك فتوزيع الثروة لا يهدد العلم ولا الفن ولا الادب بخطر ما. فالحجة التي اشرنا اليها سابقاً التي كان يقيمها البعض ضدّ الاشتراكيين قد زالت بانتشار التعليم

ثم ان الحالة الصحية الناشئة عن تقدم الطب وارتقاء الصحة العامة تمدنا ببرهان قوي على فساد نظامنا الاقتصادي . فان مدى الحياة قد زاد الآن زيادة اصبح معها معظم رؤوس الاموال في ايدي رجال اربوا على الستين . وليس لهؤلاء من النشاط وحب المغامرة ما للشبان والشابات

وفي هذه المسائل قلّ ما نجد التاريخ عوناً على حلها . ان الحضارة القديمة التي دامت ستة آلاف سنة اخذت تزول . وقد اخذ يحلّ محلها حضارة جديدة تختلف عنها قدر اختلافها عن المسيحية . والتاريخ كما يعلّم في المدارس ليس الا سرداً للنازعات السياسية في الالفي السنة الاخيرة. ولكنا نجد فيه بعض الفائدة حين نكبّ على درس بعض تفصيلاته الدقيقة لانها توضح لنا نفسية رجال السياسة والجماهير في عصرنا. ففهمنا للحرب الاهلية في انكلترا يزداد وضوحاً اذا عرفنا ان الملك شارل الاول كان مصاباً بالعي اكثر من مطالعتنا للبيانات القانونية المملة التي كان يوردها لتأييد اعماله الفاسدة . وهذا هو السبب الذي يحمل رجال العصر ونسائه على العناية بمطالعة سير الرجال الذين كان لهم اثر في التاريخ بدلاً من مطالعتهم لكتب التاريخ !

كثيراً ما نعتقد ان الكاتبين — ارباب الفن واصحاب الرؤى — هم روّاد التاريخ وبناة

العمران . ولكنني اعتقد ان هذا خطأ . قد يستطيع صاحب الرؤى ان يدل طائفة من الآراء بنيرها وقد يستطيع صاحب «الحلم» ان يحقق حلمهُ بعد حروب وثورات واضطهاد واستشهاد . ان ذلك يهز الارض كما يقول احد الشعراء ولكنهُ لا يحركها

فمن هم زعماء التاريخ وبناة العمران وروّاده ؟ هم الذين اصبحت الحياة واسالب المعيشة بعدهم غير ما كانت عليهِ قبلهم ؟ اني اعتقد ان معظمهم كانوا صناعاً حاذقين ولعلَّ اعظمهم بروميثيوس وترپتوليموس الاول منحنا النار والثاني الزراعة . وفي عصر التاريخ المدوّن استنبطت مستنبطات بلغت الفائدة التي نجني منها ما جعل انتشارها امراً محتوماً . وفي ذلك العهد اكتشفت بكتشفات عقلية عظيمة ولكنها نسيت لانها لم تفض الى نتيجة عملية . فمعادلات المصريين القدماء الجبرية نسيت لانها كانت تشتمل على «ارشادات لمعرفة الاشياء المظلمة» ولكن وسائلهم في مسح الاراضي وهندسة المباني ظلت ترتقي ارتقاء مستمراً الى هذا العصر . واذا وازنا بين باستور وداروين وجدنا هذا الفرق واضحاً . فباحث باستور الاساسية مضمونة الخلود لان كل امة لا تؤمن بها تنزل بها الاوبئة ويتضاعف عدد وفياتها ولكن مع ان آراء داروين مسلم بها عند اكثر العلماء فلا اعرف نكبة ما تنجم عن رفضها او نسيانها . على ان باستور لم يكن مفكراً نابغاً فقط بل كان صانعاً صناعاً . انهُ استنبط اكثر وسائل البكتيريولوجيا المستعملة الآن . فجانب كبير من تفكير باستور تمَّ في يديهِ . واما داروين فعلى نقيض ذلك

الى هؤلاء الصناع اعود في تعليل معظم ما يصيب الامم من ارتفاع وانحطاط . فالامبراطورية البريطانية لم تصبح في حيز الامكان الاَّ باتقان الملاحة البحرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولولا ارتقاء السكك الحديد لكان نصف الولايات المتحدة الآن براري وصحارى . ولعل الطيارة تكون اداة في خلق « الدولة العالمية »

ان هذا النظر الى التاريخ لا ينال رضاء عاماً لسببين اولاً — لان الذين يكتبون التاريخ عادة هم رجال تهمهم كثيراً آراؤهم السياسية ومعتقداتهم الدينية فجلُّ ما يكتبونهُ يلوّن بهذه الآراء والمعتقدات ويكون دعاية لها . والثاني — ان المؤرخين لا يعالجون الاَّ الالفاظ . يطالعون كتباً كثيرة ويطلعون على وثائق خطيرة ويكشفون عن مدونات مجهولة . لقد كان بعضهم من الكتاب البلغاء لكنهم ومكسول وممسن . فهم يدركون اثر الالفاظ في تحريك الجماهير . ولكن لم يتح لهم ان يكونوا صناعاً فغاب عنهم ان ايدي الانسان اكثر « انسانية » من فيهِ . على اني ارى ان التاريخ انما هو محاولة الانسان لحل مشكلة معيشته العملية . وانجح الذين عالجوه ليسوا الذين فكروا فيها اكثر من غيرهم ، ولا الذين تكلموا عنها اكثر من غيرهم ، بل هم الذين مضوا في عملهم من غير ثرثرة او تبجح